"لبنان آثاراً وتاريخاً في عقد من السنين" مجلّد ضخم صوراً ونصوصاً بالإنكليزية والفرنسية

بانوراما شاملة للتنقيبات الحديثة في بحث علمي مصقول بروح عصرية

يكفي قارئ كتاب "لبنان آثاراً وتاريخاً في عقد من السنين" أن يقلّب صفحاته الخمسمئة والاثنتين والتسعين ليدرك حجم الرصانة والجهد العلمي النظري والميداني الذي بذل من أجل تأليفه، والدرجة العالية من الذوق الزخرفي تصميماً وتبويباً وتزييناً وتنفيذاً، الى اخراج محتوياته بتلك الجاذبية المريحة للبصر التي كان لها الأثر المباشر في شدّ متصفح هذا الكتاب الى مطالعته.

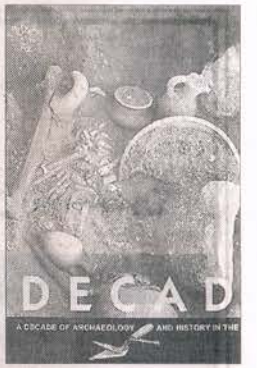

غلاف الكتاب.

ولا يشبع القارئ منه لثراء فيه يتجاوز مظاهره الفاتنة للعين، فضلا عن محتويات تختصر أفقياً وعمودياً المنظر الاثري العام حتى أعمق جذوره. كأن كل المرويات تنطلق من تجاعيد جغرافية لم تسلّم بعد أسرارها كافة رغم الحفريات من كل نوع، والوحشية منها اكثر من المضبوطة أركيولوجياً التي كشفت عن الوجه الخفي قبل العلني لعالم من آلاف السنين وعشرات المراحل التاريخية لا يزال معظمها مطموراً تحت غبار الزمن.

ونظرة أولى الى عناوينه العريضة الخمسة عشر تؤكد للمهتم بالشأن الاثري الطابع الشمولي لتنقيبات غطّت لبنان من شماله في تل عرقا، الى جنوبه في الرشيدية، الى جبله وبقاعه في وادي قاديشا وكامد اللوز. وحضور قوي للمدن البحرية الثلاث، صور وصيدا وجبيل، ذات الدور البارز بين شعوب المتوسط في الألفين الثاني والاول قبل الميلاد. الى محاولات لفهم أكثر انفتاحاً لبيادر أركيولوجية محاصرة بالريبة، ونعني بها بيروت وطرابلس وبعلبك، وعمليات الحفر هنا وهناك وهنالك تنتهي الى لغط لا مكان للمعايير العلمية فيه. الى عرض مركّز على بساطة في شرح المعطيات وتحديد الاكتشافات الاثرية في ورش غارقة في غبار التاريخ، مثل أشمون والحورية وكامد اللوز ويافنوح... الى تعريف متحفي بدور عائلتي فرح (من صور) ودوغللو (من صيدا) اللتين أهدتا متحف اللوفر الباريسي اكثر من خمسمئة اكتشاف أثري "تشكل الآن ذخيرة مهمة في دائرة الآثار الشرقية"، بحسب كلود ضومط سرحال، حفيدة ميشال شيحا، التي اشرفت على إعداد "لبنان آثاراً وتاريخاً في عقد من السنين" بالاشتراك مع آن ربّاط وأندريا رزق.

والكتاب ذو طابع أركيولوجي علمي دقيق في تحديد مقاصده، ومنطقي في سرد معلوماته، وعملي في إظهار الملامح الاكثر نتوءاً لاكتشافات صنعت المعروف من أحداث تاريخية ومعالم حضارية يتبارى المؤرخون في قراءة محتوياتها والدلالات. واذا دان "لبنان آثاراً وتاريخاً..." بوجوده للثلاثي ضومط - ربّاط - رزق، بل بجزء من تنقيباته لكلود ضومط سرحال التي قادت بعثة المتحف البريطاني الى حفريات صيدا، فإنه في مادته من صنع اربعين باحثاً ومؤرخاً ومنقباً عمل كل من زاوية اختصاصه وضمن ميدان اهتمامه، على عرض قراءته لما تأتي به هذه الورشة او ذاك الاكتشاف في الموقع الجغرافي الذي أوكلت اليه مديرية الآثار اللبنانية مهمة إكتشاف مجهولها. وتأخذ مساهمة كل من هؤلاء الواحد والاربعين اختصاصياً الشكل المفيد والمقتصر والقريب في معظم النصوص من الشكل المختصر الذي يبقي من الدراسة العلمية المستفيضة المعاني الاقوى تحديداً وفي لغة اختزالية قصوى جديرة بالخلاصات الفعلية ذات الوظائف العلمية.

ولكل عنوان أكثر من دراسة معقودة على مقاربة أركيولوجية لمظهر أثري غير عادي فيه ثراء التاريخ الحضاري للشريط المتوسطي الخاص بالجغرافيا اللبنانية. ولا تراكم في المعاني بين اكتشافات ورشة واخرى، كأن الرغبة من تصميم الكتاب هي رسم الصورة العلمية الكاملة لبلد يجد صعوبة وجودية في تقبل جذوره والمعاني المتعلقة بتشاكيلها الحضارية. ومحتوى الكتاب واضح التكوين الحضاري للجهد الموظف فيه للحفاظ دوماً على صدق التعريف الاثري ووضوح التحليل العلمي للاكتشافات في كل الورش في أي مرحلة زمنية ارتبطت. وينتقل القارئ من الزمن الحجري والبرونزي والحديدي الى المدن الفينيقية والعالم المتوسطي اليوناني والروماني فالبيزنطي والاسلامي مع التوقف دوماً عند الفتوحات الآتية اليه من الاعماق الفراتية والفارسية... واذ ندل هنا على كل تلك المعالم فللأثر العميق الذي تركته في الذاكرة الترابية والحجرية والانسان اللبناني في أزمنة غابرة لم تكن دولة من دولنا المعاصرة تحمل الاسم الذي تحمله اليوم.

والكتاب أنيق، ومبوّب في عقل علمي يقظ ومزيّن بصور فوتوغرافية تجمع المعرفة الثقافية بالاثر المصور والاغراء البصري المريح للعين، مما يهب زائر الكتاب مجموعة من المتع الذهنية والزخرفية تصب جميعها في منحه طابع الكتاب المصنوع للفرجة وللمعرفة في آن واحد. الى كون الكتاب من النوع الثمين النادر المشغول في روح ابداعية مصقولة بروح عصرية مخمرة لا تبحث عن نجاح سريع بل عن أداء خدمة لمادة ثقافية نخبوية لرغبة مصممها في تقريبها من القارئ المثقف وإن تكن هواجسه غير أركيولوجية المنحى. وتصبّ بنية النصوص كما هي مزرعة على صفحات الكتاب في مضاعفة اجتذابه القارئ الذي يرى الى إيقاع توزيعها مادة إغرائية للعين تضاف الى طريقة المصمم في استعمال الصورة الفوتوغرافية كوثيقة علمية اولا، إنما كذلك كاداة للتجميل تهدف الى اراحة العين وإرضاء الذوق. والعلاقة حارة ورفيعة الاثر في العين بين الصورة ومحتواها والنص ومحتواه، والاثنان كأنهما متعاونان متكاملان في مهمة إيصال العمل الاركيولوجي الى قراء ليسوا دوماً ممن يتابعون ورش التنقيب حتى في حال دورانها في العاصمة بيروت مع كل الضجة الاعلامية الفضائحية التي رافقت بعض التعديات على معالم رئيسية في آثار بيروت.

مدفن في صيدا من العصر الحجري.

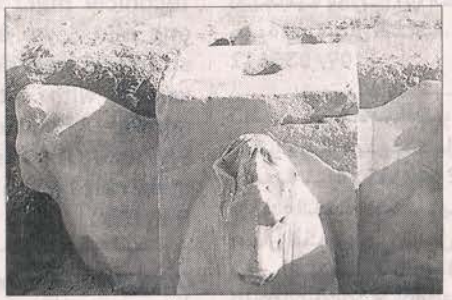
في معبد أشمون، تاج عمود مزين بأربعة ثيران.

رواق القرية، شحيم الأثرية.

والكتاب باللغتين الانكليزية والفرنسية، ويبرر ذلك بالرغبة في إيصال محتواه الى المجتمع الاركيولوجي العالمي، وجلي ان كل عالم آثار صاغ نصه باللغة الخاصة به، واللبنانيون وحدهم لم يدونوا ملاحظاتهم بلغتهم العربية، ولا تعليق رغم صدور الكتاب في بيروت، ومن إعداد لبنانيين، وبمشاركة من علماء آثار لبنانيين. ومثل هذا الامر الذي فيه مثل خطأ واضح، قد لا يمس عملياً طابع الكتاب العلمي ومحتواه الثقافي الفوّار في منح حضور تاريخي خصب للأزمنة اللبنانية القيمة، والقيمة الجمالية المميزة شكلاً وتشكيلاً تهب كتاب "لبنان آثاراً وتاريخاً في عقد من السنين"، الحضور المضيء في المكتبة اللبنانية المجبولة على لغات عديدة إنما اولاً وأصلاً على اللغة العربية.

والغريب في محتواه أنه يختصر اولاً مجمل الاعمال التنقيبية والدراسات المرافقة لها التي تمت في السنوات العشر الاخيرة، وأنه يبغي الوصول في حرية كاملة الى قارئ يروم الولوج الى جذور هويته مع حفاظه على حقه الكامل في القراءة التي يريد، وأنه مشغول يخدم علماً ورسالة ومهمة ثقافية يفترض قيامها في لبنان لإطلاق حركة فكر وابداع حول الارث الثقافي الغارق في القدم للبناني الذي يرغب اليوم بعد حروب كادت تغتال ذاكرته في بناء الصورة العلمية للمواقع التاريخية التي صنعت حاضره من دون أن تفقده هويته وصدق انتمائه اليها.

للقراءة البصرية اذا كان القارئ لا يجيد اللغتين الفرنسية والانكليزية.

نزيه خاطر